تأملات بلاغية
في حديث القرآن عن مراحل خلق الإنسان

د. صالح بن محمد الزهراني
كلية اللغة العربية - جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

مقدمة:

إن هذا البحث يهدف إلى استجلاء الخصائص البلاغية، لطائفة من الآيات التي تتحدث عن مراحل خلق الإنسان، وهي الآيات التي وردت في سورة (الحج)، وفي سورة (المؤمنون)، وفي سورة (الروم).

وقد كان الدافع إلى هذا البحث رغبتي في استجلاء الخصائص البلاغية في عرض موضوع واحد من خلال تلك السور الثلاث..

وقد قام البحث على ثلاثة مباحث:

الأول: الخصائص البلاغية في آيات سورة (الحج).

الثاني: الخصائص البلاغية في آيات سورة (المؤمنون).

الثالث: الخصائص البلاغية في آيات سورة (الروم).

وقد حرصت - قدر المستطاع - على الموازنة بين أساليب هذه الآيات، للوقوف على السر في اختيار لفظ على آخر بعد أن أوضحت المعنى العام لهذه الآيات.

المبحث الأول

الخصائص البلاغية في آيات سورة الحج:

ورد في سورة الحج آية طويلة تتحدث عن مراحل خلق الإنسان ضمن الحديث عن الساعة والبعث بعد الموت وأعقبها آيتان تقرران عددا من الحقائق التي تتعلق بالقدرة الإلهية وهي قوله تعالى:

﴿يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّنَ الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِن مُّضْغَةٍ مُّخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ لِّنُبَيِّنَ لَكُمْ وَنُقِرُّ فِي الْأَرْحَامِ مَا نَشَاءُ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ثُمَّ نُخْرِجُكُمْ طِفْلًا ثُمَّ لِتَبْلُغُوا أَشُدَّكُمْ وَمِنكُم مَّن يُتَوَفَّىٰ وَمِنكُم مَّن يُرَدُّ إِلَىٰ أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلَا يَعْلَمَ مِن بَعْدِ عِلْمٍ شَيْئًا وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدَةً فَإِذَا أَنزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ وَأَنبَتَتْ مِن كُلِّ زَوْجٍ بَهِيجٍ (٥) ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ وَأَنَّهُ يُحْيِي الْمَوْتَىٰ وَأَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (٦) وَأَنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ لَّا رَيْبَ فِيهَا وَأَنَّ اللَّهَ يَبْعَثُ مَن فِي الْقُبُورِ (٧)﴾(١).

المعنى العام:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة المجادلين في قدرة الله، المنكرين للبعث والنشور - ذكر دليلين واضحين على إمكان البعث أحدهما: خلق الإنسان، وثانيهما: إحياء النبات في الأرض الميتة.

فدعا تعالى الناس الذين يرتابون في قدرة الله على إحيائهم بعد موتهم إلى أن ينظروا في أصل خلقهم، ليزول ريبهم، فقد خلق - سبحانه- أصلهم «آدم» من التراب، ثم جعل نسله من المني الذي ينطف من صلب الرجل فيجتمع مع ماء المرأة في الرحم، ثم خلق سبحانه من هذه الأمشاج دماً جامداً ليناً يشبه العلقة التي تظهر حول الأحواض والمياه، ثم خلق سبحانه من هذه العلقة قطعة من لحم بمقدار ما يُمضغ: منها مستبينة الخلق مصورة، ومنها غير مصورة.

وقد أخبر سبحانه بهذه الأطوار البديعة في خلق الإنسان، ليعلم المنكر للبعث

أسرار قدرة الله وحكمته، فمن قدر على خلق البشر من التراب والماء، وقدر أن يجعل النطفة علقة، وبينهما تباين ظاهر، ثم يجعل العلقة مضغة، قادر على إعادة ما بدأه، بل هذا أدخل في القدرة وأهون في القياس.

ثم أخبر سبحانه أنه يقر من الحمل في أرحام الأمهات من أراد أن يقره فيها حتى يتكامل خلقه إلى زمن معين وهو وقت الوضع، ثم يُخرجُ هذا الجنين طفلاً ضعيفاً في بدنه وسمعه وبصره وحواسه، ثم يعطيه القوة شيئاً فشيئاً، حتى يصل إلى كمال قوته وعقله.

ومن الناس من يموت في ريعان شبابه، ومنهم من يعمّر حتى يصل إلى الشيخوخة والهرم وضعف القوة والخرف، ليعود إلى ما كان عليه في أيام الطفولة من ضعف البنية، وسخافة العقل، وقلة الفهم، فينسى ما علمه، وينكر ما عرفه، ويعجز عما قدر عليه.

ثم ذكر سبحانه الحجة الثانية على إمكان البعث وهي حال الأرض تكون يابسة ميتة لا نبات فيها، فإذا أنزل عليها - رب العزة والجلال - المطر تحركت بالماء والنبات، وانتفخت وزادت، وحييت فأخرجت من كل صنف عجيب.

وهذا الذي ذكره تعالى من حال خلق الإنسان والنبات، لنعلم أن الله هو الخالق المدبر الحق، وأنه قادر على إحياء الموتى كما أحيا الأرض الميتة بالنبات وأنه قادر على ما أراد، ولنعلم أن الساعة آتية لا ريب فيها، وأنه حين تقوم الساعة يحيي الأموات، ويعيدهم بعد ما صاروا رمماً، ويبعثهم أحياء إلى موقف الحساب(٢)

الخصائص البلاغية في التراكيب:

تبدأ الآية بهذا النداء (يا أيها الناس) ليقبل المخاطبون بآذان صاغية وقلوب واعية إلى تدبر ما سيأتي، وهنا تتحقق براعة الاستهلال من خلال اختيار حرف النداء (يا) ثم الإتيان بـ(أيها) : أي المقرونة بهاء التنبيه، لتأكيد معنى النداء.

وقد جاء هذا الحرف في الآية لنداء القريب، وهو في الأصل لنداء البعيد(٣)،

إعلاماً بغفلة كثير من الناس عن أمر البعث، وتنزيلا لهم منزلة البعيد، وإيقاظا لهم، لكي يتدبروا أصل خلقهم وأطواره، وأن من قدر على الإيجاد قادر على الإعادة.

ونُودي المخاطبون بلفظ (الناس) ليشمل المؤمن والكافر والمنافق، لأن التعبير بلفظ (الناس) المعرف بـ «أل» يفيد العموم(٤).

وقال تعالى في الآية السابقة: ﴿ومن الناس من يجادل في الله بغير علم﴾ وفي هذه الآية أقبل تعالى على الناس بالخطاب، فكان هذا التفاتاً من الغائب إلى المخاطب، ولهذا التحول والانتقال بالكلام من أسلوب إلى أسلوب فوائد كثيرة لعل أبرزها هنا تنبيه البشر إلى أهمية البعث، وإلى أهمية التدبر في أطوار خلق الناس، والنظر في قدرة الله على إحياء الأرض بعد موتها كدليل مشاهد متكرر على قدرته تعالى على البعث..

والتعبير بـ (إنْ) التي للشك دون «إذا» التي للوجوب أو للمتحقق الوقوع في قوله تعالى: ﴿إن كنتم في ريب من البعث﴾ يشعر بأن كونهم في ريب من البعث ضعيف مشكوك الوقوع، لكمال الدلائل المبطلة لوقوعه(٥).

والبعث بعد الموت في الأصل عند العقلاء ليس محلاً لريب مرتاب، لأن الله الذي خلق الإنسان من التراب بل خلق أكبر من هذا وأعجب، خلق السموات والأرض قادر - سبحانه - على أن يعيد الخلق بعد الفناء . . .

فإن فرض وجود «ريب» «ما» فلا ينبغي أن يدوم، لوجود ما يزيله، فحقه أن يكون شيئاً ماضياً، كما ينبئ عن هذا لفظ (كنتم). وقال: (إن كنتم في ريب) ولم يقل: «إن ارتبتم في البعث» إشعاراً بأن البعث ذاته لا يتطرق إليه ريب، وإن أثير حوله شك فمرجعه إلى انطماس بصائر الكفرة المعاندين وضعف تفكيرهم . . .

ووجه الإتيان بـ (في) الدالة على الظرفية، الإشارة إلى أنه لا ينبغي أن يمتلكهم الريب ويحيط بهم إحاطة الظرف بالمظروف، واستعارة (في) لمعنى الملابسة شائعة في كلام العرب كقولهم: «هو في نعمة».

وتنكير لفظ (الريب) يشير إلى نوع من الريب أو فرد منه أي إنْ وجد ريب فغايته أن يكون نوعاً منه أو فرداً(٦).

وجملة (فإنا خلقناكم من تراب) تضمنت إيجاز حذف بديع، لأنها واقعة موقع جواب الشرط، لأن لفظها لا يصلح أن يكون جواباً لهذا الشرط بل هي دليل الجواب، والتقدير، فانظروا في بدء خلقكم فإنا خلقناكم من تراب(٧).

والتأكيد بالحرف «إنّ» والتعبير بـ «نا» يحملان تأكيداً لمعنى الخلق في إسناده إلى المولى عز وجل وتعظيماً للخالق سبحانه وتعالى.

والتجانس ظهر بوضوح في تكرار الحرف «من» والعطف بـ «ثُمّ» في قوله تعالى: ﴿إن كنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾.

فحرف «منْ» الأولى الواقعة قبل كلمة البعث بيانية والأربع الأخرى ابتدائية، وتكرارها أكد المعنى وأضفى جمالاً على النظم الكريم(٨).

ولما كان الانتقال في خلق الإنسان من طور إلى طور متراخياً، أو يحتاج إلى زمن، ليظهر الطور الجديد - جاء العطف بـ «ثُمّ» التي دلت على التراخي الحقيقي بين هذه الأطوار.

وجمال التقسيم ودقته برزت في ذكر أطوار خلق الإنسان فالطور الأول: التراب، لأن ابتداء خلقه كان من التراب، والثاني: النطفة، والثالث: العلقة، والرابع: المضغة(٩).

وبديع الطباق جاء في قوله تعالى: (مخلقة وغير مخلقة)، والمقصود بالمخلقة - كما يرى ذلك غير واحد من أهل العلم - «المصورة خلقاً تاماً، وغير المخلقة السقط قبل تمام خلقه، لأن المخلقة وغير المخلقة من نعت المضغة، والنطفة بعد مصيرها مضغة لم يبق لها حتى تصير خلقاً سوياً إلا التصوير»(١٠).

والمتأمل في دقة التعبير القرآني عن أطوار خلق الإنسان بالتراب والنطفة والعلقة والمضغة - يجد أن الطور الأول سُمي تراباً، لأن البشر كلهم يرجعون إلى

أبيهم آدم عليه السلام الذي خلقه من تراب كما قال تعالى: ﴿إنّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾(١١).

وسُمي الطور الثاني نطفة، لأن النطفة في اللغة الماء القليل(١٢) وقد جُعل تناسل البشر من ماء الرجل وماء المرأة وهي النطفة الأمشاج كما قال تعالى:

﴿هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكورا ﴿١﴾ إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيرا ﴿٢﴾﴾(١٣).

والطور الثالث العلقة وهي في اللغة الدم الجامد اللين، ولما كان هذا الدم الجامد اللين يعلق بجدار الرحم من ناحية، ويشبه من ناحية أخرى العلقة - وهي دودة صغيرة تعيش في الماء(١٤) - سُمي هذا الطور علقة.

والطور الرابع المضغة وهي القطعة من اللحم بقدر ما يمضغ الإنسان(١٥) وقد تمكن علماء الطب في العصر الحديث من تصوير المضغة فرأوا فيها بوضوح الكتل البدنية والأقواس البلعومية ونتوء القلب البدائي فوجدوا أنّ أدق وصف لهذا الشكل الغريب هو وصف المضغة - كما سماها القرآن الكريم - حيث تبدو الكتل البدنية - وكأنها علامات أسنان انغرزت في قطعة من اللحم لاكتها ثم لفظتها فظهرت فيها تلك العلامات بارزة(١٦) والناظر إلى دقة التعبير القرآني بكلمة (مخلقة) يجد أنها صيغة تدل على تكرير الفعل بمعنى خلقاً بعد خلق أو شكلاً بعد شكل(١٧)، وهذا التخليق ينطبق على حال المضغة فالله سبحانه وتعالى يخلق المضغة عظاماً فيكسو العظام لحماً فيخلق فيها تقاسيم الجسم وأجزاءه المختلفة، فسبحانه من خالق عظيم خلق فسوى، وقدر فهدى.

وتأتي جملة (لنبين لكم) بعد أن كشف الله لهذا الإنسان غيباً لم يكن يعلمه عن أطوار خلقه - تأتي معلنة عن دليل واضح على إمكان الإحياء بعد الموت، وماهذا التدريج في خلق الإنسان إلا دليل على قدرة الله وحكمته، والملاحظ هنا أن الفعل «لنبين» لم يذكر له مفعول، إعلاماً بأن أفعال الله هذه التي ذكرت عن خلق

الإنسان، وغيرها يتبين بها من قدرته تعالى وعلمه مالا يحيط به الوصف(١٨).

والتعبير بالمضارع «نقر» و «نخرج» في قوله تعالى: ﴿ونقر في الأرحام مانشاء إلى أجل مسمى، ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم﴾ يدل على تجدد الفعل واستمراره حاضراً ومستقبلاً. أما العطف بـ «ثم» في الموضعين فيدل على التراخي، فالله يقر الجنين في بطن أمه في أكثر حالات الحمل تسعة أشهر ثم يخرجه طفلاً.

والطفل حتى يبلغ الأشد وهو سن الفتوة واستجماع القوى يأخذ زمناً غير يسير، وبهذا يتضح سر العطف بـ «ثم» دون غيرها.

وربما سأل سائل عن وجه الإفراد في قوله تعالى: (ثم نخرجكم طفلا) مع أن المعنى أطفالاً.

والجواب أن للعلماء عن هذا السؤال أجوبة منها: أن الطفل أُفرد، لأن المقصود به الجنس فهو بمنزلة الجمع(١٩).

ومنها: قول من قال (نخرجكم طفلا) أي نخرج كل واحد منكم طفلا.

ومنها: مايراه أحد العلماء كما ظهر له من استقراء اللغة العربية التي نزل بها القرآن أن من أساليبها أن المفرد إذا كان اسم جنس يكثر إطلاقه مراداً به الجمع مع تنكيره كما في هذه الآية . . . ومن أمثلته في القرآن مع التنكير قوله تعالى: ﴿إن المتقين في جنات ونهر﴾(٢٠) أي أنهار بدليل قوله تعالى: ﴿فيها أنهارٌ من ماء غير آسن﴾(٢١) وقوله تعالى: ﴿واجعلنا للمتقين إماماً﴾(٢٢) أي أئمة . . (٢٣).

والمتأمل في المقابلة بين قوله تعالى ﴿ثم نخرجكم طفلا﴾ و ﴿ثم لتبلغوا أشدكم﴾ يجد أن «نخرج» يقابل «تبلغوا» و (طفلا) يقابل «أشدكم» مما أكسب النظم جمالاً، والمعنى إيضاحاً.

ومع هذه المقابلة نرى الطباق الخفي في قوله تعالى: ﴿ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر﴾ لأن (يتوفى) مضاد لـ(يرد) أي لا يتوفى حتى يرد إلى أرذل العمر.

فكان هذا الطباق سراً من أسرار جمال النظم الكريم. والإتيان بالحرف: (من)

وتنكير كلمة «شيئاً» في قوله تعالى: ﴿لكيلا يعلمَ منْ بَعْد علم شيئاً﴾ يؤكدان المعنى فالحرف «من» مؤكدٌ للمعنى المراد في الآية، وأما كلَمة «شَيء» فقد جاءت في سياق النفي فعمت كل معلوم، أي لايستفيد معلوماً جديداً(٢٤) حين يصل الإنسان إلى أرذل العمر.

وبعد أن أخبر تعالى عن أطوار خلق الإنسان يجئ قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدةً فإذا أنزلنا عليها الماءَ اهتزَّت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾- ليوحي إلى العقل المتأمل بأن وجودَ تربة صالحة كوجود رحم صالحة، وبأن ماء المطر كماء الذكر، وأن تخلق النطفة في الرحم كتخلق البذرة في التربة، وأن خروج الزرع حياً نامياً كخروج الولد حياً نامياً، وهكذا إلى حصاد الزرع وموت الإنسان، فهذان دليلان عقليان على صحة البعث الآخر وأنه كائن لا محالة(٢٥).

والخطاب في قوله تعالى: ﴿وترى الأرض هامدة . . .﴾ لغير معين، ليشمل كل من يسمع هذا الكلام، فيدخل في هذا الخطاب دخولاً أولياً الرسول ﷺ والمؤمنون(٢٦).

والترتيب بين هذه الجمل الثلاث: [اهتزت، وربت، وأنبتت. .] ترتيب معجز، لأن التربة الجافة «حين ينزل عليها الماء تتحرك حركة اهتزاز، وهي تتشرَّب الماء، وتنتفخ فتربو، ثم تتفتح بالحياة عن النبات» وإنها لحركة «عجيبة سجلها القرآن قبل أن تسجلها الملاحظة العلمية بمئات الأعوام»(٢٧).

وهذه الآية التي وقفنا مع بعض أسرارها تختتم بكلمة «بهيج» لتكون وصفاً للنبات الذي يبهج النفس ويسرها، يأتي أثناء الاستدلال بقدرة الله على البعث.

ومع أن وصف النبات بكونه بهيجاً لا علاقة له ظاهرة بهذا الاستدلال غير أن فيه امتناناً على العباد بإحياء الأرض بعد موتها.

وبذا فإن الوصف بكلمة «بهيج» يتضمن فناً بلاغياً يسمى الإدماج.

وقد تحقق الإدماج هنا بالاشتمال على أمرين هما الامتنان الذي جاء أو أدمج في الاستدلال(٢٨).

بعد أن ذكر رب العزة والجلال في الآية السابقة دليلين كبيرين على قدرته -سبحانه- على البعث، ترد آيتان تكشفان عن بعض صفات الله المرتبطة بهذه القضية وهما قوله تعالى: ﴿ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير. وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور﴾.

والمتأمل في هذا القول الكريم يجد عدداً من الخصائص البلاغية يأتي في طليعتها الإيجاز والتصوير والتأكيد من خلال التعبير بكلمة [ذلك].

أما الإيجاز فمرده إلى أنَّ [ذلك] تشير إلى معان كثيرة هي «إنشاء الإنسان من التراب، وتطور الجنين في مراحل تكونه، وتطور الطفل في مراحل حياته، وانبعاث الحياة من الأرض بعد الهمود»(٢٩).

أما التصوير فإن هذه الكلمة تجعل الذهن يستحضر في سرعة خاطفة هذه المعاني التي ذكرتها الآية السابقة.

وأما التأكيد فمرده إلى أن الذهن يستوعب تلك الدلائل مفصلةً كما جاءت في الآية السابقة ويتسعيد تذكُّرها موجزةً من خلال هذه الكلمة التي تشير إليها.

ثم يجئ التأكيد بحرف التأكيد [أنَّ] الذي تكرر ثلاث مرات: [ذلك بأن الله هو الحق، وأنّه يحيي الموتى وأنّه على كل شيء قدير]، لترسخ في الذهن المعاني التي دلَّتْ عليها الآية السابقة، والمعاني التي تدل عليها هذه الآية، وليزداد النظم قوةً وحسناً.

وأسلوب القصر القائم على تعريف طرفي الجملة مع ضمير الفصل في قوله تعالى: [ذلك بأن الله هو الحق] يؤكد على حقيقة مهمة هي أن تلك الدلائل في خلق الإنسان، وفي إحياء الأرض بعد موتها متعلقة بأن الله هو الحق فهي من السنن التي «تنشأ من أن خالقها هو الحق الذي لاتختل سننه ولاتتخلف، وأن اتجاه الحياة هذا الاتجاه في هذه الأطوار ليدل على الإرادة التي تدفعها، وتنسق خطاها، وترتب مراحلها. فهناك ارتباط وثيق بين أن الله هو الحق وبين هذا الاطراد والثبات والاتجاه الذي لايحيد»(٣٠).

وأسلوب الطباق النابع من الجمع بين الأمرين المتقابلين في قوله تعالى: [وأنه يحيي الموتى] يجلّي حقيقة أخرى هي صفة من صفات المولى سبحانه، وهي أنه - سبحانه - «يحيي الموتى» لأنّ الذي أنشأ الحياة الأولى، هو الذي ينشأ الحياة الأخرى.

وختام الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿وأنه على كل شيء قدير﴾ يشتمل على تقديم ماحقه التأخير وهما الجار والمجرور مع اختيار لفظ [كل] و[شيء]. وفي هذا تأكيد على حقيقة شاملة - هي صفة من صفاته تعالى - وهي قدرته - سبحانه - على كل شيء مما يمكن أن نراه، ونتأمل فيه عجائب قدرته في هذه الدنيا، ومالايمكن أن نراه.

وبعد الإعلان عن تلك الحقائق في الآية السابقة - يأتي الإعلان الرباني عن أمرين ينكرهما الكافرون هما «الساعة» و«البعث» فيقول تعالى مؤكداً على حصولهما: ﴿وأنّ الساعة آتية لاريبَ فيها، وأنّ الله يبعثُ مَنْ في القبور﴾.

ذلك أن دلالة أطوار خلق الإنسان، ودلالة إحياء الأرض بعد موتها - على البعث دلالة مزدوجة، فهما يدلان على البعث من ناحية أن القادر على الإنشاء قادر على الإعادة، وهما يدلان على البعث، لأن الله المدبر يكمل تطوير الإنسان في الدار الآخرة، لأن الإنسان في الدنيا يقف ثم يتراجع، فلابد من دار أخرى يتم فيها تمام الإنسان، ليلاقي مايستحقه من جزاء إن خيراً فخير وإن شراً فشر(٣١).

المبحث الثاني

الخصائص البلاغية في آيات سورة (المؤمنون)

ورد في سورة «المؤمنون» آيتان تتحدثان عن مراحل خلق الإنسان، أعقبهما آيتان تقرران الموت بعد الحياة، والبعث بعد الموت، وذلك في قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ مِنْ سُلالَةٍ مِنْ طِينٍ (١٢) ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَكِينٍ (١٣) ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَمَ

لَحۡمٗا ثُمَّ أَنشَأۡنَٰهُ خَلۡقًا ءَاخَرَۚ فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحۡسَنُ ٱلۡخَٰلِقِينَ ﴿١٤﴾ ثُمَّ إِنَّكُم بَعۡدَ ذَٰلِكَ لَمَيِّتُونَ ﴿١٥﴾ ثُمَّ إِنَّكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ تُبۡعَثُونَ ﴿١٦﴾(٣٢).

المعنى العام:

لما ذكر تعالى في الآيات السابقة عدداً من صفات المؤمنين بالله، الموحدين له - ذكر في هذه الآيات بعض الأدلة والبراهين على قدرة الله ووحدانيته، وهي دلائل وبراهين تزيد المؤمنين إيماناً بربهم، وتدفع الكافرين والمشركين إلى الإيمان بالله وحده، وترك الإشراك به، وتجعلهم يؤمنون بالبعث بعد الموت . . .

ومن تلك الأدلة على عظيم قدرة الله خلق آدم (الأصل الأول) للنوع الإنساني من خلاصة مستلة من الطين، ثم جعل - سبحانه - تكاثر ذرية آدم من نطفة الزوجين، التي تستقر في الرحم ثم صيّر - جلّ جلاله - هذه النطفة دماً جامداً، يشبه العلقة، فخلق هذا الدم الجامد قطعة من دم غليظ مختلط، فصيرّ قطعة الدم هذه عظاماً، فستر هذه العظام باللحم، ثم بعد هذه الأطوار نفخ فيها الروح. فصيّرَ هذا الخلق خلقاً آخر مبايناً للخلق الأول، حيث صار خلقاً بشرياً يتكامل خلقه في بطن أمه، ليخرج حاملاً سمات الإنسان الذي خلقه تعالى في أحسن تقويم ﴿فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾(٣٣).

الخصائص البلاغية في التراكيب:

إن المتأمل في هذه الآيات يلاحظ أن حرف الواو في [ولقد خلقنا . .] عَطَفَ قصة الاستدلال على انفراد الله تعالى بالخلق، وبعظيم القدرة . . على قصة صفات المؤمنين التي جاء ذكرها في الآيات السابقة(٣٤).

فمن صفات المؤمنين ينتقل السياق القرآني إلى دلائل الإيمان في حياة الإنسان ذاته، وفي أطوار وجوده ونموه، مبتدئاً بأصل النشأة الإنسانية منتهياً إلى البعث في الآخرة مع الربط بين الحياتين في السياق.

وذلك أن في عرض أطوار خلق الإنسان بهذا التتابع الدقيق المطرد، ما يشير

إلى أن الإيمان بالخالق المدبر، والسير على نهج المؤمنين الذي بينه في الآيات السابقة هو وحده الطريق إلى بلوغ الكمال المقدر لتلك النشأة في الحياتين: الدنيا والآخرة(٣٥).

والحديث عن خلق الإنسان في قوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ يبدأ مؤكَّداً بلام القسم، وحرف التحقيق «قد» ليرسخ مضمون الجملة في قلوب المنكرين وغير المنكرين.

ولفظ الإنسان - هنا - يحمل وجهين بلاغيين، يشملهما السياق القرآني:

الأول: آدم، وبه فسر قتادة.

والثاني: النوع الإنساني، وبه فسر ابن عباس ومجاهد، والتعريف فيه للجنس(٣٦).

والتعبير ب- [سلالة] فيه دقة بالغة من جانبين الأول: أن معناها الشيء المسلول أي المنتزع من شيء آخر.

والثاني: أن مجيئها على وزن «فُعالة» يؤذن بالقلة مثل: قلامة، وصبابة(٣٧). وهذان المعنيان يتناسبان مع المرحلة الأولى من مراحل خلق الإنسان...

وإذا كان لفظ «الإنسان» في الآية يحمل وجهين بلاغيين يشملهما السياق القرآني فإن لفظ «سلالة» تحمل وجهين بلاغيين لايمنع منهما السياق القرآني، ويساعد عليهما التحليل العلمي الحديث لمكونات جسم الإنسان الأول: السلالة الطينية الخاصة التي خلق الله منها آدم عليه السلام، وهي الصلصال الذي ميزه من الطين في أول الخلق، فتلك الطينة مسلولة سلاً خاصاً من الطين(٣٨).

والثاني: «هي مايفرزه جهاز الهضم من الغذاء حين يصير دماً، فدم الذكر حين يمر على غدتي التناسل (الأنثيين) تفرز منه الأنثيان مادة دهنية شحمية تحتفظ بها، وهي التي تتحول إلى مني، فتلك السلالة مخرجة من الطين، لأنها من الأغذية التي

أصلها من الأرض، ودم المرأة إذا مر على قناة في الرحم ترك فيها بويضات دقيقة هي بذر الأجنة، ومن اجتماع تلك المادة الدهنية التي في الأنثيين مع البويضة من البويضات التي في قناة الرحم يتكون الجنين فلا جرم هو مخلوق من سلالة من طين»(٣٩).

والمتأمل في قوله تعالى .. ﴿... من سلالة من طين﴾ يجد جناساً تاماً، كان من أسباب جمال النظم، وتأكيد معناه في النفس، وذلك بين [منْ] الأولى التي هي ابتدائية و[من] الثانية التي هي بيانية(٤٠).

وإذا نظرت إلى حديث القرآن عن الطور الأول من خلق الإنسان، في سورة (الحج)، وفي هذه السورة - تجد فروقاً في النظم يمكن أن نشير إلى أبرزها:

ومن أبرزها أن التعبير عن الطور الأول في سورة (الحج) جاء بلفظ «التراب»؛ ليكون ملائماً للسياق القرآني في حديثه المباشر عن البعث الذي أنكره الكافرون، فالآية التي وردت في سورة «الحج» بدأت مباشرة بالحديث عن البعث ومنه انطلقت في بيان مراحل خلق الإنسان كدليل صارخ على بعث الناس من قبورهم بعد أن كانوا تراباً: ﴿يأيهــا الناس إن كنتم في ريب من البــعث فــإنا خلقناكُم من تراب...﴾ كما أن التعبير عن الطور الأول جاء في سورة «الحَج» موجزاً، في حين أنه جاء في سورة «المؤمنون» مشتملاً على زيادة بيان من خلال التعبير بلفظ [سلالة] التي تحتمل وجهين بلاغيين كما بينا ذلك.

وفي سورة «المؤمنون» جاء ذكر الطين، وفي سورة «الحج» جاء ذكر التراب، وفي سور أخرى جاء ذكر الصلصال، وجاء ذكر الطين اللازب فما سر الاختلاف بين هذه الألفاظ؟

والجواب أن الله جل وعلا أوضح في كتابه أطوار هذا الطين الذي خلق منه آدم فبين أنه أولاً من تراب بقوله تعالى في سورة آل عمران: ﴿إنَّ مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب﴾(٤١)، وقوله تعالى في سورة «الحج»: ﴿يأيها الناس إن كُنتم في ريب من البعث فإنا خلقناكم من تراب﴾(٤٢)، إلى غير ذلك من الآيات،

ثم أشار إلى أن ذلك التراب بُلَّ فصار طيناً يعلق بالأيدي في مواضع أخر كقوله تعالى في سورة «الصافات»: ﴿إنَّا خلقناهُم من طين لازب﴾(٤٣)، وقوله تعالى هنا في سورة «المؤمنون»: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾ وقوله تعالى في سورة «السجدة»: ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾(٤٤)، إلى غير ذلك من الآيات، وبين أن ذلك الطين أسود وأنه متغير بقوله تعالى في سورة «الحجر»: ﴿ولقد خلقنا الإنسان منْ صَلصال منْ حمأ مسنون﴾(٤٥)، والصلصال: الطين اليابس الذي يَصلُّ أي يصَوت من يُبْسه إذا ضربه شيء . . . والحمأ المسنون: الطين الأسود المتغيرَ، والمسنون قيل: المَصور من سنَة الوجه وهي صورته، وقيل: المصبوب المفرغ أي أفرغ صورة إنسان كما تفرَغ الصور من الجواهر المذوبة في أمثلتها، وقيل: المسنون المنتن، وقال بعض العلماء الأملس.

ثم ذكر تعالى في كتابه أن هذا الطين يبس حتى صار صلصالاً أي تسمع له صلصلة من يبسه بقوله تعالى السابق في سورة الحجر وقوله تعالى في سورة الرحمن: ﴿خلق الإنسان من صلصال كالفخار﴾(٤٦).

ولما خلق الله آدم من طين خلق منه زوجه حواء كما قال في أول النساء: ﴿ياأيها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها وبثَّ منهما رجالا كثيرا ونساء﴾(٤٧).

وقال في الأعراف: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها﴾(٤٨) وقال في الزمر: ﴿خلقكم من نفس واحدة ثم جعل منها زوجها﴾(٤٩)

ولما خلق الرجل والمرأة، كان وجود الجنس الإنساني منهما عن طريق التناسل، فأول أطواره: النطفة، ثم العلقة . . . الخ(٥٠).

وفي قوله تعالى: ﴿ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾ يجيء ذكر الطور الثاني من أطوار خلق الإنسان الذي يعد الطور الأول من أطوار الخلق في الرحم.

ولما كان الخلق الأول للجنس البشري بدأ «من سلالة من طين» جاء العطف هنا

بـ (ثُمَّ) التي تدل على الترتيب والتراخي، لأن تناسل البشر من الماء المهين جاء بعد أن خلق الله حواء زوجاً لآدم عليه السلام.

وجاء التعبير بـ (وجعلناه) دون (خلقناه) كما هو الحال في الآية السابقة، وفي الآية اللاحقة، للدلالة على أن الله خلق جوهر الإنسان أولاً طيناً، ثم جعل جوهره بعد ذلك نطفة(٥١)، وكما أوضح تعالى هذا المعنى في سورة (السجدة)(٥٢) في قوله تعالى: ﴿ذلك عالم الغيب والشهادة العزيز الرحيم. - الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين. - ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون﴾(٥٣).

وإفراد لفظ (نطفة) وتنكيرها يدل على معنى التقليل الذي يثير في النفس الدهشة من عجيب قدرة الله في تكاثر البشر «عن طريق نطفة مائية تخرج من صلب رجل، فتستقر في رحم امرأة، نقطة ماء واحدة. لا بل خلية واحدة من عشرات الألوف من الخلايا الكامنة في تلك النقطة»(٥٤).

وجاء التعبير عن الرحم بـ (القرار المكين) لبيان أن النطفة تستقر في تلك الرحم «الغائرة بين عظام الحوض المحمية بها من التأثرات باهتزازات الجسم، ومن كثير مما يصيب الظهر والبطن من لكمات وكدمات، ورجات وتأثرات»(٥٥).

ومن فروق النظم بين ذكر هذا الطور في سورة الحج، وفي سورة (المؤمنون) أنه جاء في سورة الحج موجزاً في سياق ذكر الأطوار الأخرى على هذا النحو: ﴿.. ثم من نطفة﴾ بعد أن قال سبحانه: ﴿فإنا خلقناكم من تراب﴾ مع ملاحظة تقدم الحرف «من» على لفظ «نطفة» لتدل على أنَّ تكاثر البشر ابتدأ من النطفة وجاء منها.

وهنا في سورة (المؤمنون) جاء مشتملاً على زيادة تفصيل تبرز من خلال التعبير بلفظ الجعل، وذكر القرار المكين.

ويجيء ذكر الأطوار الأخرى من أطوار خلق الإنسان في الرحم في قوله تعالى: ﴿ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا

العظام لحماً، ثم أنشأناه خلقاً آخر، فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾.

والمتأمل في هذه الآية يجد أنها مفتتحة بحرف العطف «ثُمّ» الذي يدل على الترتيب، لأن خلق النطفة علقة يأتي بعد خلق النطفة، وفي الوقت نفسه يدل على التراخي، لأن تحول النطفة إلى علقة يأخذ فترة من الزمن.

وقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الصحيح يوضح دلالة العطف بـ «ثم» فعن ابن مسعود -رضي الله عنه- قال حدثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق المصدوق «إن أحدكم ليجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يرسل إليه الملك فينفخ فيه الروح...»(٥٦).

فأول طور من أطوار خلق الإنسان في الرحم الجمع بين نطفة الرجل والمرأة في رحم المرأة، لقوله تعالى: ﴿إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً﴾(٥٧) ولقوله صلى الله عليه وسلم حين أجاب عن سؤال اليهودي القائل: يا محمد مم يخلق الإنسان؟ فقال عليه الصلاة والسلام: يا يهودي من كلٍّ يخلق من نطفة الرجل ومن نطفة المرأة، فأما نطفة الرجل فنطفة غليظة منها العظم والعصب، وأما نطفة المرأة فنطفة رقيقة منها اللحم والدم «فقال اليهودي» هكذا كان يقول من قبلك(٥٨).

وهذه النطفة التي استقرت في القرار المكين يخلقها الله علقة، ويسميها علقة.

والمتأمل في تسميتها علقة يجد دقة بالغة في هذا التعبير حيث وافق تمام الموافقة مع ما يعرفه العرب من العلق الذي يعيش في أحواض المياه، فالعلقة في الرحم تشبه هذه العلقة لوناً وحجماً، وأنها تعلق في فم الشارب..

ويجد في هذه التسمية إعجازاً علمياً مع ما عرفه العلماء في العصر الحديث حيث ثبت في علم التشريح أن هذا الجزء الذي استحالت إليه النطفة هو كائن له قوة الامتصاص من دم الأم بسبب التصاقه بعروق في الرحم تدفع إليه الدم(٥٩).

وسُمي تحويل النطفة علقة، وتحويل العلقة مضغة، وتحويل المضغة عظاماً -

سُمي خلقاً «لأنه سبحانه يفني بعض أعراضها، ويخلق أعراضاً غيرها، فسمي خلق الأعراض خلقاً لها»(٦٠).

وجاء العطف بالفاء دون ثم في قوله تعالى: ﴿فخلقنا العلقة مضغة، فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً﴾، لأن خلق العلقة مضغة، وخلق المضغة عظاماً، وستر العظام باللحم، يأتي خلقها متعاقباً، وإن كان كل طور يأخذ مدة من الزمن(٦١).

ذلك أن خلق النطفة علقة يبدأ حينما تمتزج خلية الذكر ببويضة الأنثى، وتعلق هذه بجدار الرحم نقطة صغيرة في أول الأمر، تتغذى بدم الأم..

وخلق العلقة مضغة يبدأ حينما تكبر تلك النقطة العالقة، وتتحول إلى قطعة من دم غليظ مختلط..

وتمضي هذه الخليقة ولا تتوانى حركتها حتى تجيء مرحلة العظام فمرحلة كسوة العظام باللحم(٦٢).

ولما كان اللحم ساتراً للعظم - جاء التعبير القرآني مصوراً لهذا المعنى بلفظ (كسونا) في هذه الآية(٦٣) وفي آية البقرة عند قوله تعالى: ﴿.. وانظر إلى العظام كيف ننشزها ثم نكسوها لحماً﴾.

والآية هنا تصرح بأن خلق العظام يكون قبل خلق اللحم، وبهذا التصريح القرآني، وبتقديم ذكر العظام قبل اللحم يتحقق الإعجاز البلاغي والعلمي في آن واحد فالمتأمل في هذا التعبير القرآني يقف «مدهوشا أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلاّ أخيراً بعد تقدم علم الأجنة التشريحي، وذلك أن خلايا العظام غير خلايا اللحم. وقد ثبت أن خلايا العظام هي التي تتكون أولاً في الجنين، ولا تشاهد خلية واحدة من خلايا اللحم إلا بعد ظهور خلايا العظام، وتمام الهيكل العظمي للجنين، وهي الحقيقة التي يسجلها النص القرآني: ﴿فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً﴾ فسبحان العليم الخبير»(٦٤).

وقوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يتضمن إيجازاً بديعاً لأنه يحتمل وجوهاً بلاغية يدل عليها التعبير القرآني ولا منافاة في أنها مرادة كلها: الأول: «ثم أنشأناه خلقاً آخر» يعني «ثم نفخنا فيه الروح فتحرك وصار خلقاً آخر ذا سمع وبصر وإدراك وحركة واضطراب»(٦٥).

الثاني: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني فنفخنا فيه الروح، لما ورد عن علي بن أبي طالب رضي الله عنه - أنه قال: «إذا أتت على النطفة أربعة أشهر بعث الله إليها ملكاً فنفخ فيها الروح في ظلمات ثلاث فذلك قوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾(٦٦).

الثالث: توجيه ابن عباس -رضي الله عنهما- في أن المراد بـ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ يعني ننقله من حال إلى حال إلى أن أخرج طفلاً ثم نشأ صغيراً، ثم احتلم ثم صار شاباً، ثم كهلاً ثم شيخاً ثم هرماً(٦٧).

الرابع: التوجيه الذي ساقه سيد قطب -رحمه الله- في تفسيره في أن المراد من قوله تعالى: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾ هو هذا «الإنسان» ذو الخصائص المتميزة، فجنين الإنسان يشبه جنين الحيوان في أطواره الجسدية، ولكن جنين الإنسان ينشأ خلقاً آخر، ويتحول إلى تلك الخليقة المتميزة، المستعدة للارتقاء، ويبقى جنين الحيوان في مرتبة الحيوان، مجرداً من خصائص الارتقاء والكمال، التي يمتاز بها جنين الإنسان.

إن الجنين الإنساني مزود بخصائص معينة هي التي تسلك به طريقه الإنساني فيما بعد. وهو ينشأ (خلقاً آخر) في آخر أطواره الجنينية، بينما يقف الجنين الحيواني عند التطور الحيواني، لأنه غير مزود بتلك الخصائص، ومن ثم فإنه لا يمكن أن يتجاوز الحيوان مرتبته الحيوانية، فيتطور إلى مرتبة الإنسان تطوراً آلياً - كما تقول النظرية المادية - فهما نوعان مختلفان، اختلفا بتلك النفخة الإلهية التي بها صارت سلالة الطين إنساناً، واختلفا بعد ذلك بتلك الخصائص الناشئة من تلك النفخة التي ينشأ الجنين الإنساني «خلقاً آخر»، إنما الإنسان والحيوان يتشابهان في التكوين

الحيواني، ثم يبقى الحيوان حيواناً في مكانه لا يتعداه، ويتحول الإنسان خلقاً آخر قابلاً لما هو مهيأ له من الكمال، بواسطة خصائص مميزة، وهبها الله عن تدبير مقصود لا عن طريق تطور آلي من نوع الحيوان إلى نوع الإنسان(٦٨).

ولهذه المعاني السابقة كان التعبير القرآني بالإنشاء دون الخلق، لأن الخلق المذكور قبله كان دون حياة (نفخ الروح)(٦٩).

وجاء العطف بـ (ثم) دون الفاء هنا إشارة إلى التفاوت الرتبي بين الخلقين من ناحية ولأن «ثم» تدل على أصل الترتيب في عطف الجمل بها من ناحية أخرى(٧٠).

ولما ذكر تعالى قدرته ولطفه في خلق النطفة من حال إلى حال، وشكل إلى شكل، حتى تصورت إلى ما وصلت إليه من الإنسان السوي الكامل الخلق - جاء ختام الآية: ﴿فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾، فكان ختاماً متناسباً مع مضمونها، لأن فيه ثناء على الله بأنه أحسن الخالقين(٧١).

فالمتأمل في أطوار خلق الإنسان يعجب من بديع قدرة الخالق سبحانه، فيدفعه إيمانه بربه، وعقله المتأمل إلى أن يقول هذه العبارة بمعناها أو بلفظها ﴿فتبارك الله أحسنُ الخالقين﴾.

وكلمة ﴿تبارك﴾ مشتقة من البركة وهي الزيادة ولذا أوثرت على غيرها، فالله تعالى موصوف بالعظمة والزيادة في كل مايقدره من خير للناس وصلاح لهم(٧٢).

وحذفُ متعلق ﴿تبارك﴾ ومتعلق ﴿الخالقين﴾ يجعل هذه العبارة أشمل في المعنى وأدق، ذلك أن بركته تعالى وعظمته ماثلة في الخلق وفي غيره.

وهو أحسن الخالقين في خلق الإنسان وفي خلق غيره كالجبال والسموات(٧٣)، (وأحسنُ) هنا ليست للتفضيل إنما هي للحسن المطلق في خلق الله.

والحسن - هنا - ماثل في بديع قدرة الله تعالى «الذي أودع فطرة الإنسان تلك

القدرة على السير في تلك الأطوار وفق السنة التي لا تتبدل ولا تنحرف ولاتتخلف حتى تبلغ بالإنسان ماهو مقدر له من مراتب الكمال الإنساني، على أدق مايكون النظام!

وإن الناس ليقفون دهشين أمام مايسمونه «معجزات العلم» حين يصنع الإنسان جهازاً يتبع طريقاً خاصاً في تحركه، دون تدخل مباشر من الإنسان، فأين هذا من سير الجنين في مراحله تلك وأطواره وتحولاته وبين كل مرحلة ومرحلة فوارق هائلة في طبيعتها، وتحولات كاملة في ماهيتها؟ غير أن البشر يمرون على هذه الخوارق مغمضي العيون، مغلقي القلوب، لأن طول الألفة أنساهم أمرها الخارق العجيب...

وإن مجرد التفكير في أن الإنسان - هذا الكائن المعقد - كله ملخَّص وكامن بجميع خصائصه وسماته وشياته في تلك النقطة الصغيرة التي لاتراها العين المجردة، وأن تلك الخصائص والسمات والشيات كلها تنمو وتتفتح وتتحرك في مراحل التطور الجنينية حتى تبرز واضحة عندما ينشأ خلقاً آخر، فإذا هي ناطقة بارزة في الطفل مرة أخرى، وإذا كل طفل يحمل وراثاته الخاصة فوق الوراثات البشرية العامة، هذه الوراثات وتلك التي كانت كامنة في تلك النقطة الصغيرة.. إن مجرد التفكير في هذه الحقيقة التي تتكرر كل لحظة لكاف وحده أن يفتح مغاليق القلوب على ذلك التدبير العجيب الغريب»(٧٤).

وقبل أن نختم الحديث عن مراحل خلق الإنسان في سورة [المؤمنون] نشير إلى بعض الفروق في النظم بين الحديث عن مراحل خلق الإنسان في سورة [الحج] وفي سورة [المؤمنون] التي لم نشر إليها من قبل:

أولاً: فيما يتعلق بذكر الأطوار الأخرى من أطوار خلق الإنسان في الرحم نرى أن العطف في سورة [الحج] جاء بالحرف ﴿ثم﴾ في قوله تعالى: ﴿ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة..﴾ لأنها تدل على أصل الترتيب في عطف الجمل بها فهي أعم من العطف بالفاء، لأنها تتضمن معنى الترتيب والتعقيب والتراخي الذي يفهم

من السياق الذي وردت فيه .

أما في سورة [المؤمنون] فإن العطف جاء بالفاء وذلك في قوله تعالى : ﴿فخلقنا العلقةمضغة فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً﴾، لأنها جاءت - هنا - مقرونة بالفعل ﴿خلق﴾ و ﴿كسا﴾، ومن الثابت أن خلق العلقة مضغة، وخلق المضغة عظاماً، وستر العظام باللحم، يأتي متعاقباً، وإن كان كل طور يأخذ مدة من الزمن كما سبق أن بينا ذلك .

وقال في سورة [الحج] ﴿من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾ وهذا منحى في التعبير له دلالته كما سبق أن بينت ذلك في موضعه .

وقال في سورة [المؤمنون] ﴿فخلقنا المضغة عظاماً، فكسونا العظام لحماً﴾ وهذا منحى آخر في البيان لم يذكر في سورة الحج .

وقال في سورة [الحج] ﴿لنبين لكم، ونقر في الأرحام مانشاء﴾، وقال في سورة [المؤمنون]: ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر﴾، وكل تعبير منهما له دلالته في موضعه، كما سبق أن شرحنا ذلك .

ثانياً: فيما يتعلق بالحديث عن أطوار خلق الإنسان خارج الرحم في هذه الحياة وفي الآخرة فقد اتخذ في سورة الحج أسلوباً أكثر تفصيلاً حيث جاء على هذا النحو : ﴿ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم، ومنكم من يتوفى، ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكيلا يعلم من بعد علم شيئاً، وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير، وأن الساعة آتية لاريب فيها، وأن الله يبعث من في القبور﴾ .

أما في سورة «المؤمنون» فقد اتخذ أسلوباً موجزاً على هذا النحو : ﴿ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسنُ الخالقين، ثم إنكم بعد ذلك لميتون، ثم إنكم يوم القيامة تبعثون﴾ .

والمتأمل يجدأن كل تعبير في السورتين له دلالته الخاصة في موضعه، ومناسبته

لسياق السورة التي ورد فيها، فسبحان الله الحكيم الذي نوَّع في بيان القرآن، ليزداد الذين آمنوا إيماناً.

المبحث الثالث

الخصائص البلاغية في آيات سورة الروم

ورد في سورة الروم آية تتحدث عن مراحل خلق الإنسان بأسلوب آخر، ثم يأتي بعدها آيات ثلاث تتحدث عن حال المجرمين يوم تقوم الساعة، وعن مشهد سريع من الحوار بينهم وبين أولي العلم والإيمان، وذلك في قوله تعالى:

﴿اللهُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن ضَعْفٍ ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ ضَعْفٍ قُوَّةً ثُمَّ جَعَلَ مِن بَعْدِ قُوَّةٍ ضَعْفًا وَشَيْبَةً يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْقَدِيرُ ﴿٥٤﴾ وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ ﴿٥٥﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالْإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٥٦﴾ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ ﴿٥٧﴾﴾

المعنى العام

يخبر تعالى في الآية الأولى من هذه الآيات عن أطوار خلق الناس، تدليلاً على قدرته تعالى على بعث الناس وجزائهم.. فالله سبحانه هو الذي خلقهم من أصل ضعيف هو الماء المهين ثم جعلهم يتنقلون من طور النطفة إلى العلقة إلى المضغة إلى الجنين إلى الوليد إلى الرضيع إلى المفطوم وهي أحوال في غاية الضعف.

ثم جعل سبحانه من بعد ضعف طفولتهم قوة شبابهم وكهولتهم، ثم جعل من بعد قوة شبابهم وكهولتهم ضعف كبرهم وهرمهم.

إنه - سبحانه - يخلق مايشاء من القوة والضعف والشباب والكهولة والشيخوخة وغيرها، وهو العليم بتدبير الخلق وتصريفه القدير على مايشاء.

ويخبر تعالى - بعد هذا الدليل على قدرته على البعث - عن حال المجرمين

الذين أنكروا البعث في الدنيا أنهم يوم القيامة ويوم يُبعث الناس للحساب يحلفون أنهم لم يمكثوا في الدنيا غير زمن يسير، وحالُهم في ضلالهم في الآخرة مثل حال ضلالهم في الدنيا، فقد صُرفوا في الدنيا عن الحق إلى الباطل، وعن الصدق إلى الكذب. إن انصرافهم عن الحَق في الدنيا سبَّب لهم عدم معرفتهم مدة لبثهم في قبورهم.

ثم يخبر تعالى عن رد العقلاء لهم من أهل الإيمان والعلم في ذلك اليوم، بأنهم يقولون لهم: لقد مكثتم في سابق علمه تعالى، أو لقد مكثتم في قبوركم المدة التي كتبها تعالى في كتاب الأعمال، فهذا يوم البعث الذي كنتم تنكرونه، ولكنكم لم تصدقوا به.

ثم يذكر تعالى أنه في ذلك اليوم لاينفع الظالمين اعتذارهم، ولايقال لهم أرْضُوا ربكم بتوبة أو طاعة، لأنه قد فات زمن الطاعة والتوبة في الدنيا(٧٦).

الخصائص البلاغية في التراكيب:

تبدأ الآية الأولى بهذه العبارة: ﴿الله الذي خلقكم من ضعف﴾ وهي عبارة تدل دلالة مؤكدة على أن الله هو الذي خلقنا من ضعف، ومصدر تأكيد المعنى في هذه العبارة هو تعريف طرفي الجملة بلفظ الجلالة: [الله] واسم الموصول ﴿الذي خلقكم﴾ وبهذا الأسلوب يتحقق القصر الحقيقي، وهو قصر صفة الخلق على الله سبحانه وتعالى.

وربما يسأل سائل: كيف يكون الخلق من الضعف؟

والجواب: أن خلق الإنسان جُعل من ضعف، لكثرة ضعف الإنسان أول نشأته، وطفولته، ثم حال شيخوخته وهرمه(٧٧).

وكلمة [ضعف] - هنا- تتضمن إيجازاً بديعاً هو إيجاز القصر، حيث دلَّ هذا اللفظ على معان كثيرة، لأن معنى ﴿خلقكم من ضعف﴾ أي خلقكم من أصل ضعيف، من النطْفة، ثم من العلقة ثم من المضغة، ثم جعلكم تتقلبون في أحوال

في غاية الضعف هي الجنين، والوليد، والرضيع، والمفطوم.

والعطف بـ[ثم] في هذه الآية يدل على الترتيب والتراخي، لأن القوة التي تظهر بعد الضعف الأول لاتتم إلا بعد فترة من الزمن، ولأن الضعف الثاني الذي يأتي بعد القوة لايظهر إلا بعد فترة من الزمن، والطباق بين [ضعف وقوة] في هذه الآية يعد سراً من أسرار جمال نظمها، إذ به يتأكد المعنى في الذهن من ناحية، وبه يزداد النظم جمالاً من ناحية أخرى.

ومرد تأكيد المعنى هو الجمع بين معنيين متقابلين هما القوة والضعف الذي ورد في الآية في موضعين.

والتنكير في كلمة «ضعف» يدل على النوعية أي خلقكم من نوع من الضعف وهو المشار إليه فيما سبق، وكذا التنكير في كلمة «قوة» يدل على النوعية(٧٨) أي نوع من القوة، وهي قوة الشباب والكهولة، ولما كان التنكير هنا للنوعية - فإن لفظ [ضعف] ولفظ [قوة] المذكورين في المرة الثانية هما بمعناهما المذكورين في المرة الأولى.

أما إذا كان المقصود من التنكير الفردُ الشائعُ النوع فإن النكرة إذا أُعيدت كانت غير الأولى (٧٩).

وختام الآية بقوله تعالى ﴿وهو العليم القدير﴾ يوحي إلى النفس بلطائف بلاغية منها:

١- تأكيد اختصاص الله بالعلم الشامل، والقدرة الشاملة، فضمير الفصل [هو] والتعريف بأل في لفظي [العليم] و [القدير] مع مجيئهما على صيغة المبالغة «فعيل» يدل على هذا المعنى أتم دلالة.

٢- التناسب البديع بين معنى الآية وختامها بهذين الوصفين، فالإخبار بأطوار خلق الإنسان يتناسب مع وصف الله بالعلم، ونقل خلق الإنسان من حال إلى حال على أحكم وجه يتناسب مع وصف الله بالقدرة(٨٠).

وإذا نظرت إلى الحديث عن أطوار خلق الإنسان في هذه الآية من سورة

الروم، وإلى ماورد في سورة الحج، وفي سورة [المؤمنون] - فإنك تجد فروقاً في النظم نذكر منها:

١- أن الحديث عن أطوار خلق الإنسان جاء في سورة الروم بألفاظ ثلاثة هي «ضعف، وقوة، وشيبة» في حين أنه في سورة «الحج» وفي سورة «المؤمنون» جاء بلفظ التراب أو الطين ثم النطفة ثم العلقة ثم المضغة ثم العظام وكسوتها باللحم ثم تخليقها . . . ثم الطفل ثم بلوغ الأشد ثم الرد إلى أرذل العمر على تفاوت بين السورتين في التعبير عن الأطوار الأخيرة

٢- أن الإيجاز سمة بارزة في سورة الروم في الحديث عن أطوار خلق الإنسان مع التركيز على معنيين متقابلين هما الضعف والقوة في حين أنه جاء في سورة الحج و (المؤمنون) مبسوطاً بأسلوب يتناسب مع مساق السورتين وأهدافهما.

٣- أن الحديث عن أطوار خلق الإنسان في السور الثلاث يعقبه الحديثُ عن البعث والقيامة، تكميلاً للحديث عن أطوار خلق الإنسان في الدار الآخرة، ولكن يجيء في كل سورة بأسلوب يختلف عن أسلوب السورة الأخرى وله في كل واحدة منها دلالاته التي تتناسب مع موضوع السورة وغرضها.

وهنا في سورة الروم يرد على هذا النحو: ﴿ويوم تقوم الساعة يقسم المجرمون مالبثوا غير ساعة، كذلك كانوا يؤفكون، وقال الذين أوتوا العلم والإيمان لقد لبثتم في كتاب الله إلى يوم البعث، فهذا يوم البعث ولكنكم كنتم لاتعلمون، فيومئذ لا ينفع الذين ظلموا معذرتهم ولاهم يستعتبون﴾.

والمتأمل- في هذه الآيات - يلحظ التركيز على تصوير حال المجرمين يوم تقوم الساعة من خلال حلفهم بأنهم لم يلبثوا في الدنيا إلا زمناً يسيراً، ثم حكاية رَدّ أولي العلم والإيمان على حلفهم القائم على غير هدى . . . ثم بيان أنهم خاسرون بسبب ظلمهم فلاتنفعهم يومئذ معذرة، ولايستطيعون إرضاء ربهم بتوبة أو طاعة في ذلك اليوم الرهيب.

وأما في سورة (الحج) فإنك تلحظ تركيز الآيات - بعد الحديث عن مراحل

خلق الإنسان - على بيان قدرة الله على إحياء الموتى، وتأكيدها على مجيء الساعة، وعلى بعث الناس من قبورهم على هذا النحو: ﴿ ذلك بأن الله هو الحق، وأنه يحيي الموتى، وأنه على كل شيء قدير - وأن الساعة آتية لاريب فيها وأن الله يبعثُ مَن في القبور ﴾.

وأما في سورة (المؤمنون)، فتجد بعد الحديث عن أطوار خلق الإنسان تأكيداً موجزاً على قضيتين:

الأولى: الموت بعد الحياة.

والثانية: البعث يوم القيامة على هذا النحو: ﴿ ثم إنكم بعد ذلك لميتون. ثم إنكم يوم القيامة تبعثون.

وفي ختام هذا البحث، وبعد التأمل في حديث القرآن عن مراحل خلق الإنسان تتضح أمامنا النتائج الآتية:

أولاً: - أن القرآن في حديثه يتميز بالبيان والإجمال والمرونة في التأويل بحيث لايصادم الآراء الكثيرة المتقابلة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو يُفسَّر في كل عصر بنقص من المعنى وزيادة فيه، وقد فهمه عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه من جاء بعدهم من الفلاسفة، وأهل العلوم . . . وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيّبة(٨١)، ومنها الحديث عن أطوار خلق الإنسان.

فالناظر اليوم في تلك الآيات التي تتحدث عن مراحل خلق الإنسان، وهو يضع في ذهنه حقائق القرن العشرين عن علم الأجنة يجد أنها على إيجازها ذُكِرَتْ بألفاظ دقيقة أهم أطوار تخلّق الجنين في بطن أمه وهي النطفة، والعلقة، والمضغة، ومرحلة تخلق الأجهزة، ثم الخلق الآخر.

(هذه الأطوار التي استخدم لها القرآن ألفاظاً لم يستطع العلم الحديث إلا أن يستخدمها، وبذلك نجد أن الآيات القرآنية قد جاءت إضافةً لإعجازها العلمي بإعجاز بلاغي فريد ومدهش)(٨٢).

ثانياً: - أن القرآن في حديثه يتميز بالقوة والفخامة والجلال «لأنه ليس وضعاً إنسانياً ألبتة ولو كان من وضع الإنسان لجاء على طريقة تشبه أسلوباً من أساليب العرب أو من جاء بعدهم إلى هذا العهد»(٨٣).

وقوة حديث القرآن وفخامته يكتسبها من انتقاء ألفاظه ودقتها، ومن استخدام ألوان التوكيد وأساليب البلاغة بعامة التي نشعر بها في كل مايتناوله القرآن من الأغراض(٨٤).

ثالثاً: - أن القرآن في حديثه يتميز بالتصريف في البيان، لتمكين العبرة والموعظة من ناحية ولتحقيق التناسق مع أساليب السور وأغراضها من ناحية أخرى.

والتصريف في القرآن على ضربين:

الأول: في المعاني، والثاني: في الألفاظ والأساليب.

فأما التصريف في المعاني فإنّ المؤدى في جملته يكون واحداً، ولكن يختلف في دلالته بالنسبة للسياق، فالقصة الواحدة كقصة نوح تذكر في القرآن في عدة مواضع، ولكن لها في كل مرة عبرة، وهذا تصريف في المعاني، وإن كانت الألفاظ تختلف أو تتقارب أو تتحد العبارات في بعض الأحيان(٨٥).

ومن مظاهر تصريف البيان في القرآن مارأيناه في الحديث عن مراحل خلق الإنسان في تلك السور الثلاث، لوجوه من الحكمة منها: التصريف في البلاغة ومنها: تمكين العبرة والموعظة ومنها: التلاؤم مع سياق السورة وأهدافها.

وخلاصة القول: إن التصريف في البيان - كما رأينا - في الحديث عن مراحل خلق الإنسان جاء في أعلى درجات البلاغة، لأنه يتناسب مع الناس أجمعين على اختلاف مستوياتهم، وهذا هو الإعجاز البلاغي والإعجاز العلمي في آن واحد.

الهوامش

١- سورة الحج الآيات ٥، ٦، ٧ .
٢- انظر الكشاف ج٣ ص١٤١، وفتح القدير ج٣ ص٤٣٦، ٤٢٧، وتفسير القرآن العظيم ج٣ ص٢٠٦، ٢٠٧، وتفسير القرطبي ج١٢ ص٦، وصفوة التفاسير القسم التاسع ص ٣٠-٣١، وأيسر التفاسير ج٣ ص١٤١- ١٤٢ .
٣- انظر بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح ج٢ ص٥٩ .
٤- انظر تفسير الرازي ج٢ ص ٨٤ .
٥- انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ ص١٩٦ .
٦- انظر نظم الدرر ج١ ص١٦٠ .
٧- انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ ص١٩٦ .
٨- انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ ص ١٩٧ .
٩- انظر أضواء البيان ج١٥ ص ٢٠، ٢١ .
١٠- أضواء البيان ج١٥ ص ٢٢ .
١١- سورة آل عمران الآية ٥٩ .
١٢- انظر مختار الصحاح مادة «علق».
١٣- سورة الإنسان الآيتان ١، ٢ .
١٤- انظر مختار الصحاح مادة «علق».
١٥- انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ ص١٩٧ .
١٦- انظر كتاب خلق الإنسان بين الطب والقرآن ص ٢٨٥ .
١٧- انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ ص ١٩٨ .
١٨- انظر الكشاف ج٣ ص١٤١ .
١٩- انظر تفسير ابن جرير الطبري ج١٩ ص ٩١، وفتح القدير ج٣ ص٤٣٦ وتفسير التحرير والتنوير ج٣ ص٤٣٦ .
٢٠- سورة القمر الآية ٥٤ .

٢١- سورة محمة الآية١٥ .
٢٢- سورة الفرقان الآية ٧٤ .
٢٣- انظر أضواء البيان ج١٥ ص٢٩ .
٢٤- انظر تفسير التحرير والتنوير ج١٧ ص٢٠٢ .
٢٥- انظر أيسر التفاسير ج٣ ص١٤٢ .
٢٦- انظر أضواء البيان ج١٥ ص٣٧، وتفسير التحرير والتنويرج١٧ ص٢٠٢
٢٧- في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤١١ .
٢٨- انظر تفسير التحرير والتنوير ج ١٧ ص ٢٠٤ .
٢٩- في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤١١ .
٣٠- السابق ٢٤١١ .
٣١- انظر السابق ص ٢٤١١ .
٣٢- سورة المؤمنون الآيات ١٢ -١٦ .
٣٣- انظر أضواء البيان ج٥ص ٧٧٧- ٧٨٢، وأيسر التفاسير التاسع ص ٥٣
٣٤- انظر التحرير والتنوير ج١٨ ص ٢١ .
٣٥- انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٧ .
٣٦- انظر فتح القدير ج٣ ص ٤٧٦ ، والتحرير والتنوير ج١٨ ص ٢٢، ٢٣ .
٣٧- انظر فتح القدير ج٣ ص٤٧٦، والتحرير والتنوير ج١٨ ص ٢٢ .
٣٨- انظر أضواء البيان ج٥ ص ٧٧٧، والتحرير والتنوير ج١٨ ص٢٣ .
٣٩- التحرير والتنوير ج١٨ ص٢٢ .
٤٠- انظر الكشاف ج٣ ص ١٧٤ .
٤١- الآية ٥٩ .
٤٢- الآية ٥ .
٤٣- الآية ١١ .
٤٤- الآية ٧ .

٤٥- الآية ٢٦ .
٤٦- الآية ١٤ .
٤٧- الآية ١ .
٤٨- الآية ١٨٩ .
٤٩- الآية ٦ .
٥٠- انظر أضواء البيان ج٣ ص ١٤٤، ١٤٣، ج٥ ص ٧٧٧، ٧٧٨.
٥١- انظر الكشاف ج٣ ص١٧٤، وتفسير الرازي ج٢٣ ص٨٤ .
٥٢- انظر أضواء البيان ج٥ ص ٧٧٨ .
٥٣- سورة السجدة الآيات ٦-٩ .
٥٤- في ظلال القرآن المجلد الرابع ٢٤٥٨ .
٥٥- السابق ص ٢٤٥٨ .
٥٦- تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٤١ .
٥٧- سورة الإنسان الآية ٢ .
٥٨- تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٤١ .
٥٩- تفسير التحرير والتنوير ج ١٨ ص ٢٣، ٢٤ .
٦٠- تفسير الرازي ج٢٣ ص٨٤ .
٦١- تفسير التحرير والتنوير ج١٨ ص٢٤ .
٦٢- انظر في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٨، ٢٤٥٩ .
٦٣- انظر تفسير الرازي ج ٢٣ ص ٨٤ .
٦٤- في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ١٢٥٩ .
٦٥- تفسير ابن كثير ج٣ ص ٢٤٠، ٢٤١ .
٦٦- السابق ص ٢٤١ .
٦٧- السابق ص ٢٤١ .
٦٨- في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٩ .

٦٩- تفسير التحرير والتنوير ج١٨ ص ٢٤ .
٧٠- السابق ص ٢٤ .
٧١- تفسير ابن كثير ج٣ص٢٤١، وتفسير التحرير والتنوير ج١٨ ص٢٥ .
٧٢- تفسير التحرير والتنوير ج١٨ ص ٢٥ .
٧٣- السابق ص ٢٥ .
٧٤- في ظلال القرآن المجلد الرابع ص ٢٤٥٩، , ٢٤٦٠
٧٥- سورة الروم الآيات ٥٤-٥٧ .
٧٦- انظر تفسير ابن كثير ج٣ ص٤٣٩، ٤٤٠، وأيسر التفاسير ج٣ ص٤٩٩، ٥٠٠، وصفوة التفاسير ج١٢ ص ١٨، ١٩ .
٧٧- انظر البحر المحيط ج٧ ص ١٨٠ .
٧٨- انظر تفسير التحرير والتنوير ج٢١ ص١٢٨ .
٧٩- انظر السابق نفسه .
٨٠- السابق .
٨١- انظر إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٦، ٢٠٧ .
٨٢- مع الطب في القرآن الكريم للدكتورين : عبدالحميد دياب، وأحمد قرقوز ص ٨٠ .
٨٣- إعجاز القرآن للرافعي ص ٢٠٣ .
٨٤- انظر من بلاغة القرآن للدكتور : أحمد أحمد بدوي ص٢٤٤ .
٨٥- انظر ثلاث رسائل في إعجاز القرآن للرماني ص ١٠١، والمعجزة الكبرى لمحمد أبو زهرة ص ١٥٦، ١٥٧ .